

الفصل السابع

شخصيات الأوديسا

تمهيد

تحتوى الأوديسا كإلياذة على نوعين من الشخصيات آلهة و أناسى . فأما الآلهة فهم أنفسهم الذين مروا بنا فى الإلياذة ، ولكنهم يظهرون هنا بمظاهر تختلف كثيراً عن مظاهرهم هناك . وقد ألقى الأستاذان : « بيرج » و « بنجامان كُنْستان » على إبراز هذا التباين بين أخلاق أوائك الآلهة وطباعهم وعواطفهم فى القصيدتين بهيئة مُغالية ، الأول فى كتابه « تاريخ الأدب الإغريق » ، والثانى فى كتابه « عن الدين » . ويمكن أن نجمل هذه المفارقات فيما يلى : (١) ليس آلهة الأوديسا منقسمين على أنفسهم كآلهة الإلياذة ، وإن كنا قد رأينا بوسيدون قد شذ عن الآخرين ، فأعلن عداؤه لأوديسوس ، ولكنه لم يخاصم بقية الآلهة من أجل هذا الشعور كما حدث فى الملحمة الأولى . وفوق ذلك فإن هذه الخصومة قد سويت ، أو قل : إن آثارها قد زالت فى الأنشودة الثالثة عشرة .

ولا ريب أن السبب فى هذا هو ميل أهل العصر إلى ستر الخصومات التى كانت تقع بين الآلهة وإن كان الجميع يؤمنون بها ، ولا يجرؤ أحد منهم على إنكارها ، فحالت التقوى بين المؤلف وبين التشهير بالآلهة فصورهم متحدين ، وهذا النوع من الرقى الدينى كما أسلفنا فى الفصل السابق . ومما يلفت النظر فى هذه النقطة هو أننا لم نر للأدعياء إلاهاً يحميمهم ويناصرهم ، ويمكن أن يعزى السبب فى هذا إلى أحد فرضين :

الأول أن المؤلف لم يشأ إظهار النفور بين الآلهة انعطافاً منه إلى تضيق هُوة الخلاف بينهم بقدر المستطاع ، لأن النفور نوع من الطفولة التى لاتليق بالآلهة .

والثاني أن العصر قد تقدم في طريق الأخلاق السامية إلى حد أن المؤلف رأى أن من الرذيلة التي لا يصبح أن يتصف بها الآلهة الانتصار للأدعياء المتسفين . وقد دعونا هذا رقياء ، لأن مؤلف الإلياذة لم يتخرج منه فصور لنا آلهة يحمون باريس خاطف هيلينيه ويناصرونه في ظلمه ويقفون إلى جانبه رغم جبنه ووضاعته ، أو يؤيدون پنداروس مع اعتدائه على المعاهدة التي عقدت بين الفريقين المتحاربين ومسايعته إلى فسخها ، ولكن مؤلف الأوديسا أبى أن تؤيد السماء الرذيلة أو تناصر الباطل ، وكلا الفرضين تقدم وسير نحو الكمال .

(٢) يلاحظ قارئ الأوديسا أن ظهور الآلهة فيها أقل بكثير منه في الإلياذة . أما تلك المظاهر المرعبة التي طالما رأيناها أو سمعناها مرتاعين هناك فلم نعد نلتقي بها هنا ، وذلك مثل أريس ، الذي صورته لنا مؤلف الإلياذة في المعركة عملاقاً هائلاً يفوق صوته في الإزعاج أصوات عدة آلاف من الأناسي يصرخون صرخة واحدة ، أو « هيريه » تصيح في الترواديين فتفرزعهم وترعد فرائصهم ، أو « أبولون » في غضبه ينحدر من الأولمپوس شبيهاً بالليل في رهبته ووحشته . كل هذا لم نعد نلتقي به في الأوديسا إلا كذكريات تمر بنا عرضاً لاستكمال الوصف أو التشبيه ، وإذا بدا الآلهة في مظاهر مادية ألفيناهم عاديون لا يرافقهم الإفزاع ، ولا يلوح عليهم الإرهاب .

على أن ظهور آثارهم ونتائج أفعالهم كثيراً ما يفوق فيها ظهور شخصياتهم المحسة إذا استثنينا أثينيه التي كانت تظهر لأوديسوس عند ما يكون في حاجة إليها .

(٣) إن رسول الآلهة في الأوديسا هو « هرميس » على حين كانت « إريس » في الإلياذة هي رسولتهم وموضع ثقتهم . ولا شك أن هذا تغيير مقصود للمؤلف وإن كان المحدثون إلى الآن لم يعثروا على سببه فيما نعلم .

هذا كله فيما يتعلق بالآلهة ، أما الأناسي فبجمل الفرق بينهم وبين أناسي الإلياذة هو أنهم هنا أقرب إلى مستوى الإنسانية منهم هناك ، فبدل أن يصورهم المؤلف هناك أنصاف آلهة يجروون على السماء بإهاناتهم وتحدياتهم ، بل بمحاربتهم الآلهة وطعنهم بإيهم بحرابهم ،

وإرغامهم إياهم على الفرار ، نراه هنا يرسم الأبطال في حدود محصورة لا يتعدونها ودوائر ضيقة لا يتجاوزونها ، يخضعون لأوامر الآلهة ، وينزلون عند رغباتهم ، ويلتمسون منهم العون في ضراعة واستكانة ، أو في عتب رقيق يبدو من خلاله أمل الأدنى في عطف الأعلى ، ولا نلاحظ من عدوان البشرية على ما فوقها في الأوديسا إلا فقء أوديسوس عين الكيكلوپيس ابن بوسيدون ، ولم يكن ذلك إلا لظهوره كوحش مزعج يفترس أصحابه ويهم بالفتك به .

غير أن دنو أبطال الأوديسا من الإنسانية ليس معناه أنهم أبعد عن المثل العليا من أبطال الإلياذة ، كلا ، فهم جميعاً نماذج تحتذى ، كل في بابه كما سيحى ذلك مفصلاً . والآن إليك النوع الأول وهو الآلهة مرتبين حسب أهمية الأدوار التي لعبوها في الأوديسا .

(١) الآلهة

١ - أثينيه

يختلف الدور الذي لعبته أثينيه في الأوديسا عنه في الإلياذة ، فبينما نشاهدها هناك - ككل الآلهة - تمنح رعايتها استناداً إلى تقاليد أسطورية ، أى أن أبطال المدن التي هي مقدسة فيها أكثر من غيرها هم الذين يفوزون بعطفها ورعايتها ومناصرتها ، نراها هنا تمنح هذه الرعاية مجازاة للون من ألوان التفلسف الراقى الذي كان قد بدأ يعرف مكانة العقل البشرى ويحله ، والذي يمكن أن نجمل غايته في هذه العبارة : إن أثينيه إلهة العقل والحكمة ترعى أوديسوس مثال العقل والحكمة ، وإن العناصر الأولية التي تألفت منها صداقتها هي الذكاء والتبصر وبعد النظر . وإذا ، فلم تعد الجاذبية التي تصل بين الإله والإنسان تنشأ من نسبة هذا الأخير إلى مدينة معينة لها حظوة خاصة عند ذلك الإله ، وإنما أصبحت تنشأ من تقارب الطبائع وتمائل الفطر ، وليس أدل على ذلك من دعاية أثينيه مع أوديسوس

حين تمثلت له في صورة أحد الرعاة ولم يعرفها فأراد أن يحدّثها في شخصيته وقد أعجبها ذلك منه ، لأنه كان صورة مصغرة لسياستها بين الآلهة ، وقد سجلت وجه الشبه بينهما في تلك الدعاية حيث خاطبته قائلة :

« من ذا الذي يفوقك في المهارة إلا إله مع الشك في ذلك أيضاً ؟ ألا تريد إذاً ، حتى في أرض وطنك أن تتخلى عن الحيل وعن الألفاظ الخداعة التي هي عزيزة عليك منذ ولادتك ! ولكن لندع هذا الكلام فنحن كلانا نعرف هذه الحيل . وكما أنك تفوق فيها جميع بنى الإنسان بالحكمة والفصاحة ، أنا أيضاً أتباهى بأنى أفوق فيها جميع الآلهة . ألم أعرف إذاً بالاس أثينيه بنه زوس ؟ ! أنا التي أحضر دائماً أعمالك وأحميك ! أنا التي جعلت جميع الفيكيان يُعزُّونك . تعال إذاً ، لكي أنصحك وأعينك على إخفاء الثروة التي أوحيت إلى الفيكيان أن يعطوك إياها قبيل عودتك إلى ديارك^(١) . »

لا ريب أنك توافقنا على أن هذه العبارات تدل دلالة واضحة على استحكام الصلة بين أثينيه وأوديسوس إلى حد يرسم لنا صورة حكمة السماء تحنو على حكمة الأرض وتكلؤها بعين رعايتها الأبدية .

وهناك ميزة أخرى تمتاز بها أثينيه في الأوديسا عليها في الإلياذة ، وهي أنها لم تعد هنا تلك الإلهة القوية المخيفة التي تأخذ هنا بحظ إيجاي وافر من المعركة ، وتصعد فوق عربة « ذيوميذيس » فتكاد تحطمها ، وإنما قوتها هنا توشك أن تكون داخلية معنوية تنحصر في التشجيع وتثبيت الإرادة ، ومحو اليأس من النفوس ، وتقوية الأمل والطمأنينة على النتائج ، والوحى بحسن التصرف والتحذير من الوقوع في الأخطاء والأخطار ، ولا تراها تساهم في المعركة إلا مساهمة سلبية تقف عند حد إطاشة سهام الأعداء عن أوديسوس .

(١) انظر الأنشودة الثالثة عشرة من الأوديسا .

٢ - بوسيدون

هو شقيق زوس ، وقد كان البحر نصيبه حينما اقتسم مع أخويه ممالك الكون فرضى به واطمأن له وأسس في قاعه قصرأ فخماً أقام فيه وصار له الأمر والنهى على كل ما يمر فوق سطح المياه . وهو إله أخرق أحق شديد الميل إلى الانتقام ، ولكنه انتقام راقى على طريقة الأوديسا تظهر آثاره ونتائج دون أن نلتقى بصاحبه مرغياً مزبداً ، منذراً متوعداً .

٣ - بروتئوس :

وهو أحد آلهة التنبؤات والأخبار ، وكان كثيراً ما يلبس صوراً مختلفة ، ويتخفى تحت ألوان متباينة ليفر من الذين يخرجونه ويضايقونه بكثرة أسئلتهم عن حوادث الغد وخفايا المستقبل ، وهو الذى أخبر مينيلائوس فى مصر بمقر أوديسوس .

٤ - كالبسو

هى إحدى إلهات البحر الصغيرات أو بعبارة أدق هى من صنف من آلهة الدرجة الثانية يقال له « نَمَف » وهى التى كَلِفت بأوديسوس وأسرته فى جزيرتها سبعة أعوام لالتسىء إليه ، ولكن لتنعم بحبه ، فلما أمرت بفك اعتقاله ، ثارت فى نفسها نائرة الغضب ضد زوس وضد جميع الآلهة ورمتهم بالحسد والغيظ وجعلت تصيح قائلة :

« إنكم لظلمة أيها الآلهة ، وإنكم لا أكثر من غيركم حسداً للآلهة الآخرين . أتم تحسدون الإلهات اللواتى يحتضن - فى صراحة - الرجال الذين يصطفينهم كأزواج أعزاء ، وهكذا حينما اختطفتم (إيوس ^(١)) ذات الأنامل الوردية (أريون) حسدتموها أيها الآلهة الذين لن تزالوا أحياء وظلتم كذلك إلى أن اخترقت جسمه سهام أرتيميس العفيفة

(١) إيوس إلهة الفجر التى كانت تفتح الباب فى كل صباح لعربة الشمس .

ذات العرش الذهبي . وهكذا أيضاً حينما خضعت (ديميتر) ذات الشعر الجميل لعاطفتها النفسية فارتبطت بروابط الحب مع (يازون) فوق أرض حديثة الحرث فلم يسكد زوس يعلم ذلك حتى قذفه بصاعقة بيضاء قتلته لساعته . وهكذا الآن أنتم تحسدونني أيها الآلهة لأنني أحفظ إلى جانبي رجل قابل للفناء أقيته وحيداً فوق بقايا سفينة فالتقطته بعد أن قذف زوس سفينته السريعة بصاعقة شطرتها شطرين في وسط البحر المظلم ، وكان كل أصدقائه الشجعان قد هلكوا ، وكانت الرياح والأمواج قد ألقت به إلى هنا فالتقطته وأحبيته ووعدت نفسي بأن أصيره خالداً ، وأن أجعله إلى الأبد في مأمن من الشيوخوخة ، ولكن ليس بمسموح لأي إله آخر أن يقاوم إرادة زوس العاصف . ومادام يريد أن يتيه أوديسوس من جديد فوق سطح البحر الهائج فليكن ذلك ، غير أنني لن أتولى أنا إرساله ، إذ ليس لدى سفن ولا رفاق يقتادونه فوق مياه البحر الواسعة ، وإنما سأرشده بكل اغتباط ، ولن أخفي عنه ما ينبغي أن يفعله لكي يصل سالماً إلى أرض الوطن^(١) .

غير أن كاليبسو عند ما رأت أوديسوس يأخذ الأهباء للرحيل ملك عليها الهوى كل مشاعرها فظهرت لنا أقرب إلى المرأة البشرية منها إلى الإلهة تسحقها الغيرة وتفقدوها أخلاقها ، فتحملها على المدح في بينيليميا والخط من جمالها وصفاتها ، ولكن يظهر أن تقاليد العصر لم تسمح للمؤلف أن يتبسط في تصوير هذا الهوى فأجمله ولم يعم في الإلحاح عليه .

(ب) الأبطال

١ — أوديسوس

كان هذا البطل في الإلياذة واحداً من أبطال كثيرين يكاد مستواهم يتعادل في كثير من الاعتبارات ولا يوجد بينهم من الفروق إلا ما يوجد بين أهل الطبقة الواحدة من

(١) انظر الأنشودة الخامسة .

الخصائص التي تميز كل فرد منهم عن الآخرين ولكنه تميز معتدل لا يشعر باتساع الهوة بينهم . أما في الأوديسا فالأمر على العكس من ذلك تماما ، إذ أن أوديسوس هو فيها نسيج الوجد ، وفريدة العقد . وليس معنى هذا أنه هو الشخصية الوحيدة التي يلتقي بها القارئ في الأوديسا كلا ، بل هناك مثل عليا في الوفاء والأمانة وكرم الأخلاق كينيكييا وتيليماخوس ، وأسرة ألكينووس وراعي أوديسوس ، وإنما الذي نعنيه هو أنه ليس بين هؤلاء جميعاً من يمكن أن يوازي بأجائهم ، أو أياأس ، أو ، ذيوميديس ، أو غيرهم من أبطال الإلياذة .

وقصارى القول أن المؤلف لم يضع نصب عينيه في الأوديسا إلا أوديسوس ، ولهذا فقد أفرغ جهده في رسمه حتى شخصه أمانا ، وحدد لنا صفاته وأخلاقه تحديداً دقيقاً يجعلنا نتصور أنه يعيش معنا ، غير أن هذا المؤلف - إن لم يكن هو هوميروس - قد عثر على هيكل أخلاق هذا البطل مرسوماً في الإلياذة حيث ألفاه شجاعاً ماهراً ، حكماً معسول اللسان ، قديراً على التصرف في العبارات ، واللعب بالألفاظ ، فاستولى على هذا الهيكل وجسمه وجمله محور الأوديسا وقطب رحاها ، فصور لنا أوديسوس رجلاً عبقرياً شجاعاً هادئ الطبع ، واسع الحيلة ، قوى الشكيمة ، صلب الإرادة ، زادته الحن قسوة وتحجراً ، وصيرته الآلام غير قابل للانزعاج ، ومحت من قلبه كل استعداد للتضعضع أو الخضوع لطوارئ الحداث ، وحالت الحنكة دون إذعانه للمواطف والأهواء ، فأصبح يسخر من الدموع تذرف على يديه ، ويهزأ بالقلوب تتفتت تحت قدميه ، ولا يلتفت إلا إلى غايته التي رسمها لنفسه ، وجملها هدف سهمه ، ومحط أمله . وهذه كلها صفات بشرية موزعة على بني الإنسان ، ولكنها تختلف عندهم كثرة وقلة باختلاف ما أوتوا منها من المواهب والحظوظ . غير أن الجديد المبتكر الذي أضافه مؤلف الأوديسا إلى هذه الشخصية والذي لا ينبغي إهماله هو تلك العاطفة الإنسانية السامية التي مزج بها كفاح بطله ، بل جعلها أساسه وغايته ، وهي عاطفة الحب الزوجي والأبوي والبنوي والوطني ، تلك العاطفة التي لوّن بها الشاعر جهاد أوديسوس تلويحاً يخلب النفوس ويأخذ بمجامع القلوب .

وما أبدع تلك اللوحة المؤثرة التي يرسم لنا المؤلف صورة أوديسوس فيها للمرة الأولى ، فنشاهده « طول اليوم جالساً فوق الصخور أو على رمال الشاطئ يستنفد قواه في التألم والدموع والتأوهات ، ويحدق بنظراته إلى الأفق ، والمعبرات تبلبل خديه ^(١) » .

وأكثر من هذا أنه حين يحس أن كاليبسو تريد أن تحوله عن شعوره أو أن تقذف إلى نفسه بشيء من التردد بإلحاحها على إبانة الفرق بينها وبين زوجته وإظهار سموها عليها ، يقابل ذلك بإرادة فولاذية ويخاطبها قائلاً :

« أيتها الإلهة الجليلة لاتسخطي عليّ من أجل ما سأقوله لك . أنا أيضاً أعرف أن بيننا وبينها ليس لها جمال ولا قوامك الإلهي ، إنها فانية وأنت خالدة وشابة أبداً ، ولكن الذي أريده وأشتهيه بدون فتور رغم هذا هو أن أعود إلى داري وأن أرى يوم عودتي ساطعاً ، وإذا كان هناك من الآلهة من لا يزال يريد إيلاي في وسط البحر المظلم فإنني سأحتمل ذلك ، لأن لدى قلبي قد ألف الألم ، وقد احتملت فيما مضى كثيراً من المشقات والمتاعب فوق الأمواج وفي المعركة ، فليُضَفْ هذا الألم الجديد إلى الآلام التي نزلت بي سالفاً ^(٢) » .

ولاريب أن هذا شعور نبيل لا يكاد المرء يعثر على مثله في القصيدة الأولى ، وقد يذهب بنا التحليل إلى أبعد من هذا فننظر إلى رغبة أوديسوس بعين أكثر فلسفة فنلمح أن الذي كان يجذبه ويستولى عليه هو فكرة لاعاطفة ، وغاية عقلية لا هووى قلبي ، ولدينا من روح العصر الجديد ما يؤيدنا في ترجيح الفكر على القلب ، وتغليب التأمل على الهوى ، والإرادة على العاطفة .

إذا كان كل هذا يروق ويشوق عند أوديسوس فهناك جانب آخر من أخلاقه لا يقل جمالا وجلالا عن الجوانب المتقدمة ، وهو ضبط هذا البطل عواطفه ، وقهره أهواءه وميوله ، وكتبه أحاسيسه ومشاعره بهيئة تشهد للمؤلف ، بل للعصر كله بضر به في السياسة الحكيمة

(١) انظر رقم ١٥٥ وما بعده من الأنشودة الخامسة .

(٢) انظر رقم ٢١٥ وما بعده من الأنشودة الخامسة .

بسهم نفاذة لاسيا إذا كان هذا الكبت قد وقع من شخص عاد إلى وطنه بعد غيابه عنه عشرين عاما ، وهو زمن يجعل مقاومة العواطف متعسرة إن لم تكن متعذرة . فإذا أضفنا إلى هذا أن كبتة ذلك الشعور كان عاما أي إزاء الأصدقاء والأعداء ، وأنه أهين أثناءه من خدمه وصنائع نعمته ، وأن هذه الإهانات لم تستطع أن تأخذ أي مظهر خارجي يبدو على وجهه ، وإنما كانت تهيج الدم في عروقه لا أكثر ولا أقل .

وقد أخذ الأستاذ كروازيه على المؤلف إفراطه في تصوير ضبط النفس إلى هذا الحد الذي قد يتجاوز الفطرة الإنسانية ورماء بأنه وضع المثل الأعلى للحزم نصب عينيه وجعل يعدو خلفه مفضيا عما عداه ، فنأى بذلك عن الواقع المعتدل . وقد دفعته هذه المغالاة إلى الإيجاز في وصف المنظر الذي انفجر فيه غضب أوديسوس وبدت فيه عواطفه في الأنشودة الثانية والعشرين حينما نزع النقاب عن شخصيته وأخذ يصب إلى خصومه الأدعياء لواذع كلماته قبل أن يسدد إلى صدورهم ونحوهم لواهب سهامه .

ونحن لا نوافق الأستاذ كروازيه على رأيه هذا ، لأن أوديسوس حينما ضربه الراعى تردد وسأل نفسه عما إذا كان يسحق رأسه أو يكظم غيظه . وأخيراً غلب الثانية على الأولى شأن الحكيم الذي تصطدم في نفسه شتى العواطف ، فيغلب ما يأمر به العقل منها ويسدل على الباقي ستار التناسي والسكران . وكذلك حين قصت عليه زوجته مأسيتها تأثر في أعماق نفسه ، ولكنه طوى كشحه على هذا الشعور دون أن يدعه يبدو على وجهه . أما أخذه على المؤلف بإجازه في تفريع الأدعياء فنحن نرى أن فيه شيئا من التعسف ، لأن تلك الأبيات قد سقت لوصف موقف كان السيف فيه أصدق أنباء من الكتب ، فيكفي أن ترافق السهام تلك العبارات القارسة التي نترجم لك منها على سبيل النموذج ما يلي :

« آه أيها الكلاب أتم لم تكونوا تظنون أنني سأعود إلى داري من بلاد إليوس^(١) » البعيدة حينما كنتم تخربون بيتي وتعمدون بالعنف على خادمتي وحينما كنتم

تخطبون ود زوجتي ، وأنا حتى دون الخوف من الآلهة الذين يقطنون السماء الواسعة ، ولا الانتقام في المستقبل من أى إنسان . والآن أنتم جميعاً في سلسلة الموت^(١) .

٢ - تيلياخوس :

هو شاب في مقتبل العمر و ربيع الحياة ، نبيل الخلق عزيز النفس ، صريح شجاع جذاب ، ولا تسمح سنه بأن يقال عنه أكثر من ذلك ، إذ أن أخلاق الرجال التي تنشأها التجارب وتخلقها الحوادث لم تبد عليه بعد .

غير أن أخلاقه - مع الأسف - قد خضعت لتصوير أكثر من واحد من المؤلفين فألقينا فيها من التناقض مالا يسيغه العقل ولا يحتمله الاتساق . فمن أمثلة ذلك أننا نشاهده في أكثر مناظر القصيدة يناصر والدته في موقفها ، ويؤيدها بكل ما أوتى من قوة في رفضها الزواج بأحد الأدعياء ، ويستحثها على الاستمرار في أماتها ووفائها لزوجها ، ولكن شد ما تكون دهشتنا حينما نرى المؤلف يسف بأخلاقه إسفاقاً لا يليق بها ، فيحدثنا على لسان بينيلبيا قائلاً :

« أما الآن وقد كبر ولدى فإنه يتوسل إلى أن أغادر هذه الديار ، لأنه ثائر من أجل ثروته التي يلتهمها الأدعياء^(٢) » .

ولا ريب أن مؤلف هذه الأنشودة لو أنعم النظر في بقية الأناشيد ، لتبين له أن ما نسبته إلى تيلياخوس في هذا البيت السالف لا يمكن أن ينطبق على فطرته المرسومة فيها ، ولكن المؤلفين المتأخرين قد عودونا أن نعتقد أنهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم عناء قراءة القصيدة التي ينتحلون فيها ما ينتحلون ، وهذا نوع من الاستهتار لا حد له .

(١) انظر رقم ٣٥ وما بعده من الأنشودة الثانية والعشرين .

(٢) انظر رقم ٥٣٠ من الأنشودة التاسعة عشرة .

٣ - أميوس :

هو راعي أوديسوس الأمين وخادمه الوفي الذي حفظ عهده ، ورعى نعمته ، فلم تغيره السنين حين تجهم الدهر لأرباب نعمته وقلب لهم ظهر المجن ، ولم يجار الراعي الآخر ولا الخدمات الخائنات ، وايس الدور الذي لعبه قد بلغ من الأهمية حداً كبيراً ، وإنما الذي شغل عدة مناظر من القسم الأخير من الأوديسا هو إخلاصه وثباته على العهد ، وحسنته على سيده ، وألمه لما تقاسمه سيدته من فراق زوجها ، ووقاحة الأدعياء ، وحنقه على أولئك الشبان الأراذل المتطفلين ، وسهره الدائب على ثروة مولاه ليدفع عنها - بقدر ما تؤهله له قوته الضئيلة - غائلة المغيرين ، وهو فوق ذلك خير سخي ، بشوش تقي ، نشيط ذكي ، متبصر حين تقتضى الظروف الجمالة ، نراه سلبياً يكظم غيظه حيث يقتنع بأن إبداء شعوره لا ينتج إلا الشر والسوء كما حدث في موقفه بإزاء مينيلنتيوس راعي العز إذ اعتدى على ضيفه الشيخ على سراى منه ، ولكنه قوى عنيف عند ما يحىء أوان الشجاعة والمقاومة نشاهده في المعركة يقف إلى جانب سيده موقف الشهم المحارب يساهم في سرائه وضرائه ، ويربط مصيره بمصيره .

٤ - فلوتيس :

هو رئيس الرعاة وهو في الأمانة والوفاء والثبات والشجاعة صورة مصغرة لصاحبه وإن كان الدور الذي لعبه ضئيلاً إلى جانب دور « أميوس » ولم يلح المؤلف على رسم أخلاقه كما فعل مع سالفه . ويبدو لنا أن أهمية هذين الراعيين هي تاريخية أكثر منها أي شيء آخر ، لأنهما يشرحان لونا من وفاء طبقة الرعاة والخدم واحتفاظهم بالجميل في تلك العصور .

٥ - لا إرتيس :

هو والد أوديسوس وكانت مرتبته في الاحترام تتطلب منا البدء به ، ولكن النهج الذى سلكناه يقتضى أن نرتب الشخصيات حسب الأدوار التى لعبوها فى الأوديسا ، لاحسب درجاتهم الاجتماعية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

يمتاز هذا الشيخ بالشجاعة وقوة الإرادة ، وصلابة العزيمة ، واحتمال المكبات ، والجلد فى مقابلة الحن والأرزاء ، والرضى بالأقدار . ومن خواصه أيضاً حبه لابنه الذى يبدو بهيئة مؤثرة وفاتنة فى نفس الوقت حين يلتقيان بعد هذه الغيبة الطويلة .

٦ - ألكينوؤوس :

هو ملك مثالى لشعب مثالى تحوطه الفخامة ، وتحفه الأبهة ، وتغمره الفخفة وهو يعيش مع أسرته وشعبه فى سعادة ورخاء ينعمون بمسرات الحياة ، ويرفلون فى بحبوحة اللذة من أكل وشرب ورقص ولعب وغناء وموسيقى وإنشاد شعر وسماع قصص غريبة وروايات عجيبة ، وهو عدا ذلك بشوش سخي كريم الخلق ، رقيق الطبع ، يقدر أدب اللياقة ، وينزل المؤدبين منازل الاحترام والاحلال . وبالإجمال هو مثال للملك كما أن جزيرته مثال للجزر صنعها المؤلف من خياله ليجعلها نموذجاً ينسج على منواله .

٧ و ٨ - نستور ومينيلائوس :

هما ذانك البطلان اللذان مررنا بهما فى الإلياذة ، ولكن مؤلف التيلياخوسية - وهو فى عصر متأخر - قد صورهما هنا ملكين عظيمين تحوطهما الأبهة والفخامة والرغد على غرار ألكينوؤوس ملك الفيكيان ويضيف إليهما غبطتهما بانتصارهما فى حرب تروادة ،

وتباهيهما بماضييهما وحديثهما عن المعجزات التي أحدثاها أو شهداها كأنهما يعيشان في عصر غير عصرهما يحسان أنه أدنى منه ، وبالتالي هما أسبى من معاصريهما . وأخيراً يصورها لنا وفيين يتحدثان عن اخوانهما في حب وحنين واعتراف بالجميل وتقدير للمواهب والعبقريات .

(ج) الأبطالات

١ - بينيليبيا :

لكي نلتقي بأخلاق بينيليبيا الحقيقية يجب أن نتقّب عنها في الأناشيد القديمة لأن المتعجلين لا يتعمرون الدقة في التصوير كما أشرنا إلى ذلك مراراً . ونحن إذا تعقبنا هذه الأناشيد ألفيناها فيها تكاد تكون نموذجاً يحتذى : أمانة في حبها ، وفية لزوجها ، ثابتة على عهدها ، عطوفة على ابنها ، محافظة على شرفها ، متمسكة بكرامتها ، قابضة على السيادة في قصرها ، لا تتخلى عن شيء من سلطتها لكان من كان ماعداً ابنها ، فإننا نشاهدها دائماً تدعّن لأمره ، وتنزل عند إرادته ، ولا تدرى أكان هذا من جانبها حناناً مغالياً أم إتقاناً في التربية تقصد به أن تعود هذا الأمير الشاب على أن بطاع دائماً حتى من أكبر شخصية بعد والده ، أم مجارة للفكرة القديمة التي كانت تخضع المرأة مهما كبر شأنها للرجل مهما صغرت سنه وضوّات قيمته . وعلى أي حال من هذه الأحوال الثلاث هو منظر يروق النفس . ومن أبرز خصائص هذه السيدة : التبصر الذي غالى المؤلف في وصفها به مغالاة جعلته أقرب من أي شيء آخر إلى الحذر وفقدان الثقة من كل من يحوطها ، وليس أدل على هذا من موقفها ساعة التعارف مع زوجها واحتياطها حتى في الأحبولة التي نصبتها له لتسبر بها غوره ، فلم توجهها إليه ، بل وجهتها إلى الموضع على مسمع منه ، ولولا أنه كان قوى الذاكرة ، حاضر البديهة لما فطن إلى ما تريد ، ولهو في ذلك الفخ فتعقد الموقف أكثر من ذي قبل بسبب إفراطها في الحذر .

بيد أنها إذ تتحقق من شخصية زوجها تعتذر إليه من مغالاتها في الحذر ، وتبين له الأسباب التي حملتها على تلك المغالاة فتقول : « لا تسخط علىّ يا أوديسوس ، وأنت أكثر

الناس تبصراً . إن الآلهة قد أرهقونا بالآلام ، وحسدونا على سرور التمتع معاً بالشباب وعلى الوصول معاً إلى عتبة الشيخوخة ، فلا تسخط على ولا تؤنبني على أنى لم أبادر إلى معانقتك حين رأيتك ، فنفسى تضطرب في صدرى خشية أن يحىء إلى هنا رجل فيخذعنى بكلماته ، لأن كثيراً من الرجال يبنقون حيلاً خبيثة . إن « هيلينيه » الأرجوسية ابنة زوس لو عرفت أن أبناء الأكيان الشجعان سيعيدونها يوماً إلى دارها في أرض الوطن لما ارتبطت برباط الحب مع أجنبي ولكن إلهاً دفعها إلى هذا العمل المخجل ، وهى لم تطرد من قلبها هذه الفكرة المشثومة الفظيعة التى كانت السبب الأول لشقاؤها وشقائنا ، وها أنت ذا الآن قد صرحت لى بالأمارات المؤكدة لنا فى سريرنا والتى لم يرها أى إنسان ، وإنا نحن الذين رأيناها وحدنا أى أنت وأنا وخادمتى « أكتوريس » التى منحنى إياها والذى حين جئت إلى هنا والتى كانت تحرس باب غرفة زفافنا . وأخيراً أنت أفنعت قلبى ولو أنه كان مفعماً بالحذر^(١) .

ومن هذه الميزات أيضاً ظهورها بمظهر الكرامة والعظمة حتى فى أخرج المواقف وأشقها ، فهى حين تروى للشيخ السائل قصتها لا تنزل من مستواها الطبيعى ولا تجارى العامة فى الظهور بمظاهر المهانة والضعفة ، وإنا هى تسود نفسها ، وتملك أعصابها ، وتضبط عواطفها ، وتحافظ على مكانتها الاجتماعية محافظة تامة . ومن آيات هذا سمو أنها تضع مبدأ الرهان بين الأدعياء وتفرضه عليهم فى جلال يقهرهم على الإذعان لرأيها والرضوخ لفكرتها .

الآن وبعد الذى أسلفناه من أخلاق بينيليبيا نستطيع أن نجزم بأنها تشبه أندروماخيه فى الإلياذة فى بعض نواحيها ، فكلتاهما جميلة محبة لزوجها ، رعوم على ابنها ، مترفة عن مجارة العامة ساعة نزول السكارثة تسمو بنفسها عن مواطن الضعة والإسفاف حتى فى أشق الظروف وأخرج المواقف .

(١) انظر الأنشودة الثالثة والعشرين .

٢ — نوسیکا

هى ابنة الملك السكينوژوس ، وهى أهم الشخصيات النسوية فى الأوديسا بعد بينيليبيا . وأول ما ينبغى أن نشير إليه عند حديثنا عنها هو أنها ليست شخصية تاريخية ولا هى من بطلات الأساطير الهيلينية ، وإنما هى من مبتكرات الشاعر البدائى وخلق خياله كوالدها نموذج فى كثير من المحامد كالحسن والرشاقة وخفة الروح والدقة والخيرية والحياء الممزوج بقوة الإرادة وصلابة العود . ولهذا حين تقع عينها وأعين صواحبها على أوديسوس أشعث الشعر عارياً يحاول الاستتار بأوراق الأشجار ، وعلى جسمه طبقة من زبد البحر تفر كل الفتيات هلعاً وذعراً من منظره وتبقى هى وحدها مفعمة القلب بالشجاعة ، مليئة النفس بالكرامة ، تستمع إلى توسلاته ، وتطمئنه على مصيره فى وداعة ورقة . وعندما يستحم ويلبس الملابس التى قدمتها إليه تتأمل فى وجهه بإعجاب ثم تنحنى على رفيقاتها وتقول لهن فى تلك السذاجة اللذيذة التى هى من خصائص الشعر الهوميروسي مايلي :

« إستمعن إلىّ يا صديقتاى العزيزات ليس بدون إرادة الآلهة الذين يقطنون الأولمپوس أن يكون هذا الأجنبي قد وصل عند الفيكيان الشيبهين بالخالدين . منذ لحظة كان يبدو لى دميماً ولكنه يشبه الآلهة الذين يشون فى السماء الواسعة ، فلتشأ الآلهة — وهذا شأنه — أن يريد المقام هنا ليصير زوجاً لى وأن يروقه الاستقرار فى هذا البلد^(١) » .

ولا يكتفى المؤلف بهذا المنظر المؤثر الذى نشاهد فيه آمال هذه الفتاة تفتح تفتح الزهور فى فصل الربيع ثم لا تلبث أن تذوى أمام تصميم أوديسوس على العودة إلى وطنه ، وإنما هو يقدم إلينا منظراً آخر أشد تأثيراً وأكثر فتنة وسحراً ، فيرينا نوسيكاً ساعة رحيل هذا البطل واقفة على مقربة من باب القاعة تحدى إلى أوديسوس معجبة به وتخطبه قائلة « وداعاً أيها الأجنبي ، أرجو وأنت فى وطنك أن تذكر يوماً تلك التى أنت مدين لها بسلامتك^(٢) » .

(١) انظر رقم ٢٣٩ وما بعده من الأنشودة السادسة .

(٢) انظر رقم ٤٥٨ وما بعده من الأنشودة الثامنة .

٣ — هيلينيه

هى تلك التى رأينا فى الإلياذة أنها كانت مأتى كل الرزايا والتكبات ، ونسكنها هنا
تختلف عنها هناك ، إذ يصورها لنا مؤلف التيلياخوسية وقد عادت إلى دار زوجها وزال من
بينهما سوء التفاهم وجعلا ينعمان بحياتهما الراهنة دون أن يسمحا للماضى أن يطوف بحاضرها ،
فيحدث فيه اضطراباً بما يحمله بين طياته من ذكريات مريرة ، وإذا ألمعت هى إلى تلك
الحادثة المحزنة لتقف نفسها موقف الجانية ، بادر هو فعزا كل هذه الكوارث إلى الآلهة
وبرأها منها .

ومن مميزات هيلينيه هنا بشاشتها وحسن أخلاقها ، ولطف لقائها ، وإمعانها فى إعزاز
تيلياخوس وإكرام رفده .